مفتتح

الإسلام في خلاصه العام للبشر

رئيس التحرير

محمد محمود مرتضى

يُعَـدّ الخلاص والنجاة يوم القيامـة من أهمّ المفاهيم المركزيّة في الأديان السـماويّة كلّها، بل والأديان غير السـماويّة. فالخلاص من المعاناة والخطيئة والعقوبـة يوم القيامة، والوصول إلى حالة من السلام والطمأنينة والرضا والسعادة والقرب من الله تعالى، بل والسكون وانعدام الشعور عند بعضهم، كما في النيرفانا، يُعَدّان من أهمّ الموضوعات في مختلف الأديان، حيث يُشكّلان الهدفَ الأسمى الذي يسعى أتباعُ كلِّ دينٍ إلى تحقيقه.

بل إنّنا نجد أنّ بعض الأديان الوضعيّة التي لا تؤمن بيوم القيامة، وتعتقد بالتناسخ، تسعى حثيثًا نحو الخلاص من دوّامة الولادات المتكرّرة، والهدف الأسمى لهم هو الوصول إلى النيرفانا؛ ما يشير إلى أنّ السـعي نحو الخلاص -بمعزل عن توصيفه وكيفيّته- هو هدف فطريّ للبشر كلّهم. على أنّ هـذا الخلاص له أبعاد روحيّة وخُلُقيّة وعاطفيّة بالغـة الأهمّيّة في حياة البشريّة عمومًا، وفي الحياة الإيمانيّة خصوصًا.

فلو أخذنا الخلاص في بُعده الروحيّ، لوجدناه يتضمّن البحث عن المعنى والهدف الأسـمى في الحياة، وتحقيق الكمال الروحيّ.

وفي البُعـد الخُلُقيّ، يتعلّق بالالتزام بالقِيَم الخُلُقيّة، والتحلّي بالفضائل، والتخلّي عن الرذائل، ويهـدف -من جهة أخرى- إلى تحقيق الخير والصـلاح، وتجنُّب الشرّ والظلم، وتحقيق العدالة في المجتمع البشريّ.

وفي البُعد العاطفيّ، يتعلّق بالشعور بالأمن والطمأنينة والراحة النفسيّة.

هــذه الأبعاد المتعدّدة وغيرها، تجعل مفهوم الخلاص والنجاة يــوم القيامة محوريًّا في الحياة الروحيّة والنفسيّة للبشر، ويشكّل دافعًا قويًّا لهم للسعي نحو الكمال الخُلُقيّ والروحيّ.

وقد اختلفَت الــرؤى والاتّجاهات في النظر إلى الخلاص والنجاة بين الأديان، فبعضهم يؤمن بالحصريّة في النجاة، وبعضهم حاول تطوير هذا المفهوم قليلاً، كما فعلَت الكنيســة في تطوير مفهوم الحصريّة، فطرحَت -بشكل رسميّ- النظريّة الشموليّة في المجمع الفاتيكانيّ الثاني، والتي لا تختلف في المضمون عن نظريّة الحصريّة، وإن اختلفَت في الشكل والتخريج. وبعضهم يؤمن بنظريّة أخرى في هذا المجال، كالدين الإسلاميّ، فهو يرى الحصريّة في مجال المشروعيّة، وهي نظريّة للنجاة تختلف عن الرؤية الانحصاريّة العامّة المطروحة في المســيحيّة؛ فهي مع حَصرِها الشرعيّة بالدين الإســلاميّ في زماننا، دون بقيّة الأديان، ترى أنّ النجاة قد تشمل غير المسلمين أيضًا.

ففي المســيحيّة، يُعَدّ موضوعُ الخلاص عبر موت المســيح وقيامته، الجوهرَ الأساس للعقيدة المســيحيّة، فهُم يؤمنون أنّ المسيح قد حقّق الخلاص للبشريّة عبر موته على الصليب، وقيامته في ما بعد. ومن ثمّ، فإنّ الإيمان بالمسيح وقبوله كمخلّص شخصيّ بعينه، لا بعنوانه، هو السبيل الوحيد للخلاص الأبديّ.

والخلاص أصلٌ جوهريّ ومحوريّ، وتدور حوله مجملُ الديانة المسيحيّة، فهو مرتبطٌ ارتباطًا جوهريًّا بأمرَين، هما: الخطيئة الأولى، والفداء.

فالنجاة تعني الخلاص من الخطيئة الأصليّة وآثارها، عبر الإيمان بيســوع المســيح كمخلّص؛ ممّا يؤدّي إلى الحياة الأبديّة في الملكوت السماويّ.

وفي اليهوديّة، النجاة تعني الخلاص من الشرّ والظلم، ومن الأعداء والقوى المعادية لشــعب إسرائيل. والخلاص عندهــم يتحقّق عبر الإيمان بالله وطاعة الوصايــا والتوراة؛ ممّا يؤدّي إلى الحياة الأبديّة في عالَم الآخرة. وتتجسّــد أهمّيّــة الخلاص عند اليهود في الالتزام بالميثاق الذي عقده الله مع بني إسرائيل، والذي يُعَدّ أساسَ العلاقة الدينيّة.

ولكنّ هذا المفهوم، كغيره من المفاهيــم اليهوديّة، قد تطوَّر وتأثَّر بعوامل عدّة: دينيّة، وثقافيّة، واجتماعيّة، وزمانيّة، وسياســيّة، بل حتّى الرغبات والمصالــح والمنافع أدَّت دورًا في بلورة هذا

المفهوم وتطويره.

ونجد في المعتقدات الهنديّة عمومًا -سواء البوذيّة أو الهندوسيّة أو غيرها- أنّ النجاة تعني التحرُّر من دورة إعادة الولادة (السمسارا - التناسُخ). وبحسب هذا النظام، فإنّ الإنسان لا يتلقّى عقابَه على آثامه في الجحيم، بل في الحياة الزمنيّة الدوريّة، فالجحيم هنا على هذه الأرض.

وتسعى البوذيّة، في عمليّة الخلاص، إلى التخلّص من الرغبات والآلام والجهل. ويتحقَّق هذا الخلاص عبر السَّير في الطريق ذي الثماني شعب، الذي يؤدّي إلى إطفاء الرغبات والوصول إلى حالة النيرفانا، وهي الهدف النهائيّ للديانة البوذيّة. وعلى الرغم من سَعيها هذا للخلاص، فإنّ البوذيّة -بحسب نصوص مؤسِّسها- لا تؤمن بخالق للكون، وترى أنّ الكون أزليٌّ أبديٌّ، إلّا أنّ الخلاص عندها هو انعدامٌ للشعور، وحالةٌ من الفناء في روح الكون الكلّيّة.

هذا، في حين تركّز الكونفوشيوسيّة على السلوك اللائق في الحياة، وليس جنّة المستقبل. الحياة الآخرة غير معروفة؛ لذلك، يجب بذل الجهود كلّها لجَعلِ هذه الحياة أفضل ما يمكن أن تكون، وتكريم الأجداد، واحترام الشيوخ، وما شابه ذلك.

أمّا في الإسلام، فيُنظَر إلى الخلاص على أنّه التحرُّر من السيطرة والهيمنة الشيطانيّة، والنجاة من عذاب الآخرة، والوصول إلى الجنّة والرضا الإلهيّ.

ويشدّد القرآن، مرارًا وتكرارًا، على أنّ دين الإسلام دينٌ واحدٌ في الأساس، وإنْ بَلَّغَ رسالتَه أنبياء مختلفون على مرِّ التاريخ، وهذا ما تعبّر عنه الآية الكريمة: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾[1].

ويرى القرآن أنَّ من الخطأ التفرقة بين الرسالات السماويّة، أو بين نبيٍّ ونبيّ، فالأنبياء كافّة أرسلهم ربٌّ واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**﴾[2].

وبحسب آيات القرآن، فإنّ أساسيّات الرسالات السماويّة كلّها واحدة، وإنّها تسعى إلى هدف واحد، هو صلاح الإنسان في دنياه وأُخراه.

فالإسلام، بمعناه العامّ، والذي جوهرُه التسليم والخضوع القلبيّ أمام الأمور الإلهيّة، يشمل

1 - سورة الشورى، الآية 13.

2 - سورة البقرة، الآية 285.

الأديـان التوحيديّة كلّها الصادرة عن الوحي الإلهيّ، ويشـمل التاريخَ كلّه، مِن نبيِّ الله آدم إلى النبيِّ الخاتَم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. وعليه، فإنّ الإسـلام العامّ له مصاديق عدّة: فمصداقه في زمن النبيّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ شريعة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي زمن النبيّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي زمن النبيّ عيـسى عَلَيْهِ السَّلَامُ شريعة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي زمن النبيّ محمّـد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ شريعة محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. فشرائع الأنبياء كلّها هي تجلّيات للإسلام بهذا المعنى.

فإذا كان الإسلام بمعنى التسليم القلبيّ للأوامر الإلهيّة، فعلى كلّ مَن كان يعيش في زمن النبيّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ووصلَته رسالتُه، أن يؤمن به، وبالأنبياء كلّهم قبله، وبكلِّ مَن بَشَّر به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعدَه؛ فلو آمن شـخصٌ مـا بالأصول العقديّة كلّها، وبالأنبياء السـابقين كلّهم، مع وصول دعوة عيسى إليه، ولكنّه لم يؤمن بهذا النبيّ في زمانه، فهو ليس بمسلم، بل من أهل الجحود والطغيان والعناد، وسيأتي حُكمُهم حسب الرؤية الإسلاميّة.

ومصداق الإسلام العامّ، منذ بعثة النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وإلى نهاية العالَم، هي شريعة النبيّ محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. ومَن يُنكِر هذه الدعوة، مع وصولها إليه، هو متمرِّد على الأوامر الإلهيّة؛ لأسباب متعدّدة، كالعناد وطلب الجاه وغير ذلك.

وفي ضوء البيانات السابقة، يتحدّد موقف الإسلام من مشروعيّة الأديان في الآتي:

أوّلًا: إنّ الأديان غير الإلهيّة -أيّ الوضعيّة- كلّها، والأديان الإلهيّة المحرّفة ليست طُرُقًا موصِلةً للحقّ والحقيقة.

ثانيًا: إنّ للمشروعيّة تفسيراً خاصًّا في الرؤية الإسلاميّة، وهو تاريخ الصلاحية؛ بمعنى عدم كفاية المطابقة للواقع. فحتّى الأديان والشرائع غير المحرّفة -والتي تشـترك مع الإسـلام في الأصول والمعتقدات الأساسـيّة، وتختلف في الأحكام فحسـب- لا تتّصـف بالمشروعيّة، مع صِدقها، ورغم مطابقتها للواقع؛ وذلك لاختصاصها بزمن معيَّن. فالإيمان بها لا يكفي، بل يجب، مضافًا إلى الإيمان بالأنبياء السابقين وكُتُبهم، الإيمان والإطاعة للأوامر الإلهيّة في العصر الحاضر.

ثالثًا: في العصر الحاليّ، يجب على كلِّ مَن وصلَته الرسالة الإسلاميّة ودعوة النبيّ، أن يؤمن به وبرسالته؛ لأنّها هي مصداق الإسلام بالمعنى العامّ.

فالإسلام يرفض الانحصاريّة في مجال الخلاص والنجاة، التي دَعَت إليها اليهوديّة والمسيحيّة، ولكنّه يؤمن بنوعٍ خاصّ من الانحصاريّة، وهي الانحصاريّة في مجال المشروعيّة؛ بمعنى أنّ مَن

وصلَته الرسالة الإسلاميّة يجب أن يؤمن بها حصرًا، دون غيرها من الأديان.

والانحصاريّة في مجال المشروعيّة في الإسلام ترى تحقُّقَ النجاة لِطَيفٍ واسع من غير المسلمين، لكنّها ترى تحقُّقَ النجاة الأخرويّة لهم على أساس الاستضعاف الفكريّ، الشاملة للقاصرين وغير القادرين على الوصول إلى الحقّ والحقيقة الدينيّة، المتمثّلة بالدين الإسلاميّ.

ومهما يكنْ من أمر، فإنّ معظم الأديان، السماوية (بما هي في الواقع اليوم) ما عدا الإسلام، وغير السماوية، ، قد وقعت، فيما يرتبط بالخلاص الأُخرويّ، بين حدّي الإفراط والتفريط، فيما اتخذ الإسلامُ طريقاً وسطياً. صحيح أنّ الإسلام قد جعل الآخرة محوراً أساسياً في رؤيته الكونية، إلا أنّه لم يطلب من الناس الإعراض عن الدنيا ومفاتنها بالكليّة؛ إذ الأوامر المولويّة في الإعراض عنها يُقصد منها عدم التعلّق بها على أنّها هي الحياة النهائية. فإذا أخذنا من هذه الروايات ما يصف الدنيا بأنّها مرزعة الآخرة، على سبيل المثال، فإنّ الإعتناء بالمزرعة والإهتمام بها وبزرعها، شرط أساس لنجاح الزرع وإتيانه الثمار، ونجاح موسم الحصاد.

من هنا، وجّه الإسلامُ الإنسانَ الى الطُرق المُثلى للإعتناء بالزرع. وبهذا المعنى، قدّم الإسلام رؤيته للحياة الدنيا في إطار تكامليّ موصل الى الآخرة إيصالاً آمناً، وذلك من خلال إعطاء الإنسان دوراً حضارياً بإمتياز، محوره الأساس إعمار الأرض والتناسل. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال الآيات القرآنية المرتبطة بآيات الإستخلاف والتبليغ، ومنها يستفاد دور الإمامة في عملية الإيصال الآمن.

إذاً، لم تأتِ الرؤية الإسلاميّة في قضيّة الخلاص مبنيّةً على إهمال الدنيا إهمالاً تامّاً، وإنّما على البناء الحضاري لهذه الدنيا، بما ينسجم مع دور الإنسان فيها بما هو مخلوق عاقل، يمتلك الإستعدادات اللازمة لأداء هذا الدور، وللسير في طريق التكامل، مشفوعاً بنماذج إنسانيّة (الأنبياء والأئمة) يمكن الإقتداء بها. بهذا المعنى، وفي إطار الرؤية الخلاصية الإسلاميّة، دعا الإسلامُ الإنسان لتأمين حياته في الدنيا وفق مفهوم "الحياة الطيبة"، أي الحياة الخالية من الخبائث والرذائل وإن كانت ليست خالية من التعب؛ لأنّ التّعب لازم لكل مشروع زرعي خلاصي يراد منه الحصاد الناجح.

وعلى أيّة حال، فقد جاء العدد الثاني من مجلّة «اعتقاد» ليعالج قضيّة الخلاص، ويناقش الآراء حولها، بما فيها قضيّة التعدّديّة الدينيّة؛ لِما لهذا الموضوع من أهمّيّة خاصّة، ولا سيّما بعدما زلَّت

أقدام كثيرين فيها. وقد ناقش هذا العدد نظريّات الخلاص عند بعض الأديان، السماويّة منها وغير السماويّة. وغنيٌّ عن القول إنّ ملاحقة رأي الأديان كلّها حول موضوع الخلاص ممّا لا يسمح به عددٌ من مجلّة، فأخَذنا نماذج رَأَينا أنّها الأهمّ والأكثر انتشـارًا بين الناس، وتمثّل الشريحة الأكبر من المعتقدات السائدة، آملين أن ينال هذا العدد استحسان القرّاء، ويقدّم الفائدة المرجوّة للمهتمّين. وآخرُ دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين.

25 أيار 2024م، الموافق 17 ذو القعدة 1445هـ.